تفسير سورة الفتح

هى تسع وعشرون آية . وهى مدنية . قال القرطبى : بالإجماع . وقد أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الفتح بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن إسحاق ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها [١] ، وهذا لا ينافى الإجماع على كونها مدنية ؛ لأن المراد بالسور المدنية : النازلة بعد الهجرة من مكة. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته ، فرجع فيها [٢] . وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه رسول الله ﷺ ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر بن الخطاب : هلكت أمّ عمرنزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك ، فقال عمر: فحرّكت بعيرى ثم تقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بى . فقلت : لقد خشيت أن يكون قد نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه ، فقال : « لقد أنزلت على سورة لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ » [٣] . وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ الآية إلى ﴿ فوزا عظيما ﴾ مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة . وقد نحروا الهدى بالحديبية فقال : « لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ من الدنيا جميعها » [٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ

---

(١) ابن إسحاق ٣/٣٦٦ وصححه الحاكم ٢/٤٥٩ على شرط مسلم ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٤/١٥٩، ١٦٠.

(٢) أحمد ٥/ ٥٤ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٥) وفى فضائل القرآن (٥٠٣٤) وفى التوحيد (٧٥٤٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٤/ ٢٣٧) والنسائى فى الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٥٥) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٣٣)، وفى المغازى (٤١٧٧) وفى فضائل القرآن (٥٠١٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٢) وليست هذه الرواية فى مسلم ولم يذكرها المزّى فى التحفة ولا الدر المنثور للسيوطى فى سورة الفتح.

(٤) مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٦/ ٩٧) .

عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) ﴾

قوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ اختلف فى تعيين هذا الفتح ، فقال الأكثر : هو صلح الحديبية ، والصلح قد يسمى فتحاً . قال الفراء : والفتح قد يكون صلحا ، ومعنى الفتح فى اللغة : فتح المنغلق، والصلح الذى كان مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذراً حتى فتحه الله. قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام فى قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام . قال الشعبى : لقد أصاب رسول الله ﷺ فى الحديبية مالم يصب فى غزوة ، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرّضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله، وظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وقال قوم: إنه فتح مكة ، وقال آخرون : إنه فتح خيبر ، والأول أرجح ، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت فى شأن الحديبية . وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح . وقيل : هو ما فتح له من النبوة والدعوة إلى الإسلام . وقيل : فتح الروم . وقيل : المراد بالفتح فى هذه الآية كما فى قوله : ﴿ افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] فكأنه قال : إنا قضينا لك قضاء مبينا ، أى ظاهراً واضحا مكشوفا .

﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ اللام متعلقة بـ﴿ **فتحنا** ﴾ وهى لام العلة . قال ابن الأنبارى: سألت أبا العباس، يعنى: المبرد، عن اللام فى قوله: ﴿**ليغفر لك الله**﴾ فقال: هى لام كى معناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح ، فلما انضمّ إلى المغفرة شىء حادث واقع حسن معنى كى. وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة، وقال صاحب الكشاف: إن اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ماعدّد من الأمور الأربعة وهى المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عز الدارين ، وأعراض العاجل والآجل [١] . وهذا كلام غير جيد، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علة للفتح، فكيف يصح أن تكون معللة؟ وقال الرازى فى توجيه التعليل : إن المراد بقوله : ﴿ **ليغفر لك الله** ﴾ التعريف بالمغفرة تقديره : إنا فتحنا لك لتعرف أنك مغفور لك معصوم ، وقال ابن عطية : المراد : أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة ، وقال أبو حاتم : هى لام القسم وهو خطأ ، فإن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها .

(١) الكشاف ٤/ ٣٣٢ .

واختلف فى معنى قوله : ﴿ **ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ فقيل : ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة ، وما تأخر بعدها . قاله مجاهد وسفيان الثورى وابن جرير والواحدى وغيرهم . وقال عطاء : ما تقدم من ذنبك ، يعنى : ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر من ذنوب أمتك ، وما أبعد هذا عن معنى القرآن . وقيل : ما تقدم من ذنب أبيك إبراهيم ، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده . وهذا كالذى قبله. وقيل : ما تقدم من ذنب يوم بدر ، وما تأخر من ذنب يوم حنين، وهذا كالقولين الأولين فى البعد . وقيل : لو كان ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك . وقيل : غير ذلك مما لا وجه له ، والأول أولى ، ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة : ترك ماهو الأولى ، وسمى ذنباً فى حقه ؛ لجلالة قدره ، وإن لم يكن ذنباً فى حق غيره .

﴿ **ويتمّ نعمته عليك** ﴾ بإظهار دينك على الدين كله . وقيل : بالجنة . وقيل : بالنبوة والحكمة . وقيل : بفتح مكة والطائف وخيبر ، والأولى أن يكون المعنى : ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الإسلام ، ومعنى ﴿ **يهديك** ﴾ : يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿ **وينصرك الله نصرا عزيزا** ﴾ أى غالباً منيعاً لا يتبعه ذلّ . ﴿**هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ أى السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم ﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ أى ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانا منضما إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل ، قال الكلبى : كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازداوا تصديقا إلى تصديقهم . وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينا مع يقينهم ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ يعنى : الملائكة والإنس والجن والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء ، ويسلط بعضهم على بعض ، ويحوط بعضهم ببعض ﴿ **وكان الله عليما** ﴾ كثير العلم بليغه ﴿**حكيما** ﴾ فى أفعاله وأقواله . ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله ، تقديره : يبتلى بتلك الجنود من يشاء ، فيقبل الخير من أهله ، والشرّ ممن قضى له به ليدخل ويعذب. وقيل : متعلقة بقوله : ﴿ **إنا فتحنا** ﴾ كأنه قال : إنا فتحنا لك ما فتحنا ليدخل ويعذب . وقيل : متعلقة بـ﴿**ينصرك** ﴾ ، أى نصرك الله بالمؤمنين ليدخل ويعذب . وقيل : متعلقة بـ﴿ **يزدادوا** ﴾ أى يزدادوا ليدخل ويعذب ، والأوّل أولى ﴿**ويكفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى يسترها ولا يظهرها ولا يعذبهم بها ، وقدم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس ؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى ﴿ **وكان ذلك عند الله فوزا عظيما** ﴾ أى وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله وفى حكمه فوزاً عظيما ، أى ظفراً بكل مطلوب ونجاة من كل غمّ وجلبا لكل نفع ودفعاً لكل ضرّ ، وقوله : ﴿ **عند الله** ﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ **فوزا** ﴾ لأنه صفة فى الأصل ، فلما قدم صار حالاً ، أى كائنا عند الله ، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين وجزاء المنافقين والمشركين .

ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عباده ذكر ما يستحقه غيرهم فقال : ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ وهو معطوف على يدخل ، أى يعذبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام ، وقهر المخالفين له ، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، وفى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً ، وأحق منهم بما وعدهم الله به. ثم وصف الفريقين ، فقال : ﴿**الظانين بالله ظن السوء** ﴾ وهو ظنهم أن النبى ﷺ يغلب وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام . ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا﴾ [الفتح : ١٢] ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ أى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم ، والمعنى : أن العذاب والهلاك الذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم . قال الخليل وسيبويه : السوء هنا: الفساد ، قرأ الجمهور : ﴿ **السوء** ﴾ بفتح السين . وقرأ ابن كثير وأبو عمر بضمها ﴿ **وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾ . لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا، بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ من الملائكة والإنس والجن والشياطين ﴿ **وكان الله عليما حكيما** ﴾ كرّر هذه الآية لقصد التأكيد . وقيل : المراد بالجنود هنا : جنود العذاب ، كما يفيده التعبير بالعزة هنا ، مكان العلم هنالك .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن مجمع بن جارية [١] الأنصارى قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم[٢] فاجتمع الناس، إذ الناس يوجفون [٣] الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ فقالوا : أوحى إلى رسول الله ﷺ ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ فقال رجل : إى رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : « إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح » فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية. فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة ، منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما [٤] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، وأبو داود والنسائى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ ، فبينا نحن

---

(١) فى المطبوعة: «ابن حارثة»، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ومن الإصابة ٣/ ٣٦٦ ومن مراجع التخريج.
(٢) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال. معجم البلدان ٤/ ٤٤٣.
(٣) الإيجاف: سرعة السير ، وقد أوجف دابته يوجفها إيجافا : إذا حثها . النهاية ٥/ ١٥٧ .
(٤) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٦٩٢) وأحمد ٣/ ٤٢٠ وأبو داود فى الجهاد (٢٧٣٦) وابن جرير ٢٦/ ٤٥ ، وصححه الحاكم ٢/ ١٣١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٢٣٩ .

نسير إذ أتاه الوحى ، وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فسرّى عنه وبه من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا**﴾[١]. وأخرج البخارىّ وغيره عن أنس فى قوله: ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ قال: الحديبية[٢]. وأخرج البخارىّ وغيره عن البراء قال: تعدوّن أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً. ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية [٣] . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ قال: «فتح مكة».

وأخرج البخارىّ ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال : كان النبى ﷺ يصلى حتى ترم قدماه ، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر . قال : « أفلا أكون عبدا شكورا»[٤]. وفى الباب أحاديث[٥]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾ قال: السكينة : هى الرحمة ، وفى قوله : ﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ قال : إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدقوا به زادهم الزكاة ، فلما صدقوا بها زادهم الحج ، فلما صدقوا به زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة : ٣] فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله [٦] . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود : ﴿ **ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾ قال : تصديقاً مع تصديقهم . وأخرج البخارى ، ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما أنزل على النبى ﷺ : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ مرجعه من الحديبية . قال : « لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ مما على الأرض » ، ثم قرأها عليهم . فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ حتى بلغ ﴿ **فوزا عظيما** ﴾ [٧] .

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٧٠٩) وأحمد ١/ ٣٩١ والبخارى فى تاريخه ٥/ ٢٥١ والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٨٥٣) وابن جرير ٢٦/ ٤٣ والطبرانى (١٠٥٤٨) والبيهقى فى الدلائل ٤/ ٢٧٥ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤١٧٢) والتفسير (٤٨٣٤) والنسائى فى التفسير (٥١٨) .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٥٠) .

(٤) البخارى فى التهجد (١١٣٠) وفى التفسير (٤٨٣٦) وفى الرقاق (٦٤٧١) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٩/ ٧٩، ٨٠) والترمذى فى الصلاة (٤١٢) وقال: «حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٢١).

(٥) منها: حديث عائشة الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما: أن نبى الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً . . . .» البخارى فى التفسير (٤٨٣٧) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨٢٠/ ٨١).

(٦) ابن جرير ٢٦/ ٤٥ والطبرانى (١٣٠٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « وفيه عبد الله بن صالح قيل فيه : ثقة مأمون وقد ضعف » والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٦٨ .

(٧) البخارى فى المغازى (٤١٧٢) والتفسير (٤٨٣٤) مختصراً ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٦/ ٩٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٣) وقال : « حسن صحيح » .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) ﴾

قوله : ﴿ **إنا أرسلناك شاهدا** ﴾ أى على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿ **ومبشرا** ﴾ بالجنة للمطيعين ﴿**ونذيرا**﴾ لأهل المعصية ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **لتؤمنوا** ﴾ بالفوقية ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتية ، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته ، وعلى القراءة الثانية المراد : المبشرين والمنذرين ، وانتصاب ﴿ **شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ على الحال المقدّرة ﴿ **وتعزروه وتوقروه وتسبحوه** ﴾ الخلاف بين القراء فى هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف فى : ﴿ **لتؤمنوا** ﴾ كما سلف ، ومعنى ﴿ **تعزروه** ﴾ : تعظموه وتفخموه . قاله الحسن والكلبى . والتعزير : التعظيم والتوقير ، وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . وقال عكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، ومعنى توقروه : **تعظموه** . وقال السدّى : تسوّدوه، قيل : والضميران فى الفعلين للنبى ﷺ وهنا وقف تام ، ثم يبتدئ : وتسبحوه ، أى تسبحوا الله عز وجل ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ أى غدوة وعشية . وقيل : الضمائر كلها فى الأفعال الثلاثة لله عز وجل . فيكون معنى ﴿ **تعزروه وتوقروه** ﴾ : تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء . وقيل : تنصروا دينه ، وتجاهدوا مع رسوله ، وفى التسبيح وجهان : أحدهما : التنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثانى : الصلاة .

﴿ **إن الذين يبايعونك** ﴾ يعنى : بيعة الرضوان بالحديبية ، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش ﴿ **إنما يبايعون الله** ﴾ أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله ﷺ هى بيعة له كما قال :

﴿من يطع[1] الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠] وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، وجملة : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل ، فى محل نصب على الحال ، والمعنى : أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت، وقال الكلبى : المعنى : أن نعمة الله عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة . وقيل: يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، وقال ابن كيسان : قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾ أى فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه ؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره ﴿ **ومن أوفى بما عاهد عليه الله** ﴾ أى ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه فى البيعة لرسوله . قرأ الجمهور : « عليه » بكسر الهاء ، وقرأ حفص والزهرى بضمها ﴿ **فسيؤتيه أجرا عظيما** ﴾ وهو الجنة. قرأ الجمهور :﴿ **فسيؤتيه** ﴾ بالتحتية ، وقرأ نافع وقرأ كثير وابن عامر بالنون ، واختار القراءة الأولى أبوعبيد وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء .

﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب** ﴾ هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية . قال مجاهد وغيره : يعنى أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقيل : تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين سافر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه، والمخلف : المتروك ﴿**شغلتنا أموالنا وأهلونا** ﴾ أى منعنا عن الخروج معك مالنا من الأموال والنساء والذرارى ، وليس لنا من يقوم بهم ، ويخلفنا عليهم ﴿ **فاستغفر لنا** ﴾ ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب . ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء ، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ وهذا هو صنيع المنافقين ، والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم ، ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عنهم فقال :﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئا** ﴾ أى فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير وشر ، ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ **إن أراد بكم ضرا** ﴾ أى إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل . قرأ الجمهور : ﴿**ضرا**﴾ بفتح الضاد وهو مصدر ضررته ضرا ، وقرأ حمزة والكسائى بضمها وهو اسم ما يضرّ . وقيل: هما لغتان ﴿ **أو أراد بكم نفعا** ﴾ أى نصراً وغنيمة ، وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنه الضرّ ويجلب لهم النفع .

ثم أضرب سبحانه عن ذلك وقال :﴿ **بل كان الله بما تعملون خبيرا** ﴾ أى إن تخلفكم **ليس** لما زعمتم ، بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التى من جملتها تخلفكم ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق ، وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى**

(١) فى المخطوطة : « ومن يطع » .

أهليهم أبدا ﴾ وهذه الجملة مفسرة لقوله: ﴿**بل كان الله بما تعملون خبيرا**﴾ لما فيها من الإبهام، أى بل ظننتم أن العدوّ يستأصل المؤمنين بالمرة فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة ﴿ **وزين ذلك فى قلوبكم** ﴾ أى وزين الشيطان ذلك الظن فى قلوبكم فقبلتموه ، قرأ الجمهور : ﴿ **وزين** ﴾ مبنيا للمفعول ، وقرئ مبنيا للفاعل ﴿ **وظننتم ظن السوء** ﴾ أن الله لا ينصر رسوله ، وهذا الظن إما هو الظنّ الأوّل ، والتكرير للتأكيد والتوبيخ ، والمراد به : ما هو أعمّ من الأول ، فيدخل الظنّ الأوّل تحته دخولا أوّليا ﴿ **وكنتم قوما بورا** ﴾ أى هلكى . قال الزجاج : هالكين عند الله ، وكذا قال مجاهد : قال الجوهرى : البور : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال أبو عبيد : ﴿ **قوما بورا** ﴾ : هلكى ، وهو جمع بائر مثل حائل وحول ، وقد بار فلان ، أى هلك ، وأباره الله : أهلكه . ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا** ﴾ هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله ، أى ومن لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون ، فجزاؤهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير .

﴿ **ولله ملك السموات والأرض** ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، وإنما تعبدهم بما تعبدهم ليثيب من أحسن ويعاقب من أساء ، ولهذا قال :﴿ **يغفر لمن يشاء** ﴾ أن يغفر له ﴿ **ويعذب من يشاء** ﴾ أن يعذبه ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة ، بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده . ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها** ﴾ المخلفون هؤلاء المذكورون سابقاً ، والظرف متعلق بقوله : ﴿ **سيقول** ﴾ والمعنى : سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون ﴿**إلى مغانم** ﴾ يعنى : مغانم خيبر ﴿**لتأخذوها** ﴾ لتحوزوها ﴿ **ذرونا نتبعكم** ﴾ أى اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر ، وأصل القصة أنه لما انصرف النبى ﷺ ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر ، وخص بغنائمها من شهد الحديبية ، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم ، فقال الله سبحانه : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ أى يغيروا كلام الله، والمراد بهذا الكلام الذى أرادوا أن يبدلوه: هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر ، وقال مقاتل : يعنى : أمر الله لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم ، وقال ابن زيد: هو قوله تعالى : ﴿ فإذا استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوّا﴾ [التوبة: ٨٤] واعترض هذا ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة ، والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة ، ورجحه ابن جرير وغيره . قرأ الجمهور : ﴿**كلام الله** ﴾ وقرأ حمزة والكسائى : « كلم الله» قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات ؛ لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق . ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يمنعهم من الخروج معه فقال : ﴿ **قل لن تتبعونا** ﴾ هذا النفى هو فى معنى النهى ، والمعنى : لا تتبعونا ﴿ **كذلكم قال الله من قبل** ﴾ أى من قبل

رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿فسيقولون﴾ يعنى : المنافقين عند سماع هذا القول ، وهو قوله : ﴿ لن تتبعونا﴾ بل ﴿ تحسدوننا ﴾ أى بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم فى الغنيمة ، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون . ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ أى لا يعلمون إلا علماً قليلا ، وهو علمهم بأمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وتعزروه ﴾ يعنى : الإجلال ﴿وتوقروه﴾ يعنى : التعظيم ، يعنى : محمداً ﷺ . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه فى قوله : ﴿ وتعزروه ﴾ قال : تضربوا بين يديه بالسيف . وأخرج ابن عدى وابن مردويه والخطيب ، وابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبد الله قال :لما أنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وتعزروه ﴾ قال لأصحابه : «ماذاك»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « لتنصروه » [(١)] . وأخرج أحمد وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة، فمن وَفّى وَفّى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه [(٢)] . وفى الصحيحين من حديث جابر : أنهم كانوا فى بيعة الرضوان خمس عشرة مائة . وفيهما عنه أنهم كانوا أربع عشرة مائة [(٣)] ، وفى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب : أنه سأله كم كانوا فى بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، فقال له : إن جابراً قال كانوا أربع عشرة مائة ، قال رحمه الله: وهم ، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة [(٤)] .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا

(١) ابن عدى ١/ ٩٩ .

(٢) أحمد ٥/ ٣٢٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٢٩ ، ٢٣٠ : « رواه أحمد بطوله ، ولم يقل عن إسماعيل عن أبيه ، ورواه عبد الله فزاد عن أبيه ، وكذلك الطبرانى ، ورجالهما ثقات إلا أن إسماعيل بن عياش رواه عن الحجازيين وروايته عنهم ضعيفة » .

(٣) البخارى فى المغازى (٤١٥٢) ومسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٦٩ ، ٧٣) .

(٤) البخارى فى المغازى (٤١٥٣) .

قَرِيباً (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤) ﴾

قوله : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب** ﴾ هم المذكورون سابقاً ﴿ **ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد** ﴾ قال عطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى : هم فارس .وقال كعب والحسن : هم الروم ، وروى عن الحسن أيضاً أنه قال: هم فارس والروم . وقال سعيد بن جبير : هم هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال الزهرى ومقاتل : هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة . وحكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين ﴿ **تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ أى يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية ، قال الزجاج : التقدير : أو هم يسلمون ، وفى قراءة أبى :« أو يسلموا » أى حتى يسلموا ﴿**فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا** ﴾ وهو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ﴿ **وإن تتولوا** ﴾ أى تعرضوا ﴿ **كما توليتم من قبل** ﴾ وذلك عام الحديبية ﴿ **يعذبكم عذابا أليما** ﴾ بالقتل والأسر والقهر فى الدنيا . وبعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم . ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾ أى ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم . قال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية. والحرج : الإثم ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ فيما أمره به ونهاه عنه ﴿ **يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **يدخله** ﴾ بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون: ﴿**ومن يتول يعذبه عذابا أليما** ﴾ أى من يعرض عن الطاعة ؛ يعذبه الله عذاباً شديد الألم .

ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم وشهدوا بيعة الرضوان ، فقال : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ أى رضى الله عنهم وقت تلك البيعة ، وهى بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية ، والعامل فى ﴿ **تحت** ﴾ إما يبايعونك ، أو محذوف على أنه حال من المفعول، وهذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت بالحديبية . وقيل : سدرة ، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفرّوا . وروى أنه بايعهم على الموت ، وقد تقدم ذكر عدد أهل

هذه البيعة قريبا . والقصة مبسوطة فى كتب الحديث والسير . ﴿ **فعلم ما فى قلوبهم** ﴾ معطوف على يبايعونك. قال الفراء: أى علم ما فى قلوبهم من الصدق والوفاء ، وقال قتادة وابن جريج: من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفرّوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على الموت ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ معطوف على رضى ، والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس كما تقدّم . وقيل : الصبر ﴿ **وأثابهم فتحا قريبا** ﴾ هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية . قاله قتادة وابن أبى ليلى وغيرهما . وقيل : فتح مكة ، والأول أولى . ﴿**ومغانم كثيرة يأخذونها** ﴾ أى وأثابكم مغانم كثيرة ، أو وآتاكم، وهى غنائم خيبر، والالتفات لتشريفهم بالخطاب ﴿ **وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ أى غالبا مصدرا أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة .

﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قدّر وقوعها فيها ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ أى غنائم خيبر ، قاله مجاهد وغيره . وقيل : صلح الحديبية ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ أى وكفّ أيدى قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح . وقيل : كفّ أيدى أهل خيبر وأنصارهم عن قتالكم ، وقذف فى قلوبهم الرعب . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبى ﷺ إلى الحديبية وخيبر ، ورجح هذا ابن جرير . قال : لأن كفّ أيدى الناس بالحديبية مذكور فى قوله : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم** ﴾ . وقيل : كفّ أيدى الناس عنكم ، يعنى : عيينة ابن حصن الفزارى ، وعوف بن مالك النضرى ، ومن كان معهما ، إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبى ﷺ لهم ، ﴿ **ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقدّر بعده ، أى فعل ما فعل من التعجيل والكف لتكون آية ، أو على علة محذوفة تقديرها : وعد فعجل وكف لتنتفعوا بذلك ولتكون آية . وقيل : إن الواو مزيدة واللام لتعليل ما قبله ، أى وكف لتكون ، والمعنى : ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول الله ﷺ فى جميع ما يعدكم به، ويهديكم صراطاً مستقيماً ، أى يزيدكم بتلك الآية هدى ، أويثبتكم على الهداية إلى طريق الحق . ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ معطوف على هذه ، أى فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى لم تقدروا عليها، وهى الفتوح التى فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس والروم ونحوهما ، كذا قال الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى ، وقال الضحاك وابن زيد وابن أبى إسحاق : هى خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها، وقال قتادة : فتح مكة ، وقال عكرمة : حنين ، والأول أولى . ﴿ **قد أحاط الله بها** ﴾ صفة ثانية لأخرى. قال الفراء : أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها ، والمعنى : أنه أعدّها لهم وجعلها كالشىء الذى قد أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت منه شىء ، فهم وإن لم يقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لا تفوتهم . وقيل: معنى ﴿ **أحاط** ﴾ : علم أنها ستكون لهم ﴿ **وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾ لايعجزه شىء ولا تختص قدرته ببعض المقدورات دون بعض .

﴿ **ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار** ﴾ قال قتادة : يعنى :كفار قريش بالحديبية . وقيل: أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ، والأول أولى . ﴿ **ثم لا يجدون وليا** ﴾ يواليهم على قتالكم ﴿ **ولا نصيرا** ﴾ ينصرهم عليكم . ﴿**سنة الله التى قد خلت من قبل** ﴾ أى طريقته وعادته التى قد مضت فى الأمم من نصر أوليائه على أعدائه ، وانتصاب ﴿**سنة** ﴾ على المصدرية بفعل محذوف ، أى بيّن الله سنة الله ، أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ أى لن تجد لها تغييراً ، بل هى مستمرة ثابتة ﴿ **وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ أى كفّ أيدى المشركين عن المسلمين وأيدى المسلمين عن المشركين لما جاؤوا يصدون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت عام الحديبية ، وهى المراد ببطن مكة . وقيل : إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبى ﷺ من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبى ﷺ فأخذهم المسلمون ثم تركوهم ، وفى الرواية اختلاف سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء الله ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولى بأس شديد**﴾ يقول : فارس .وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنهم الأكراد . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : فارس والروم . وأخرج الفريابى وابن مردويه عنه قال: هوازن وبنى حنيفة . وأخرج الطبرانى ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، وإنى لواضع القلم على أذنى ، إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال : كيف لى وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾ الآية [(١)] . قال : هذا فى الجهاد ، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله تعالى : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ها هنا . فقال رسول الله ﷺ : « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » [(٢)] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن نافع قال : بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التى بويع تحتها فأمر بها فقطعت . وأخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء كنتم تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت [(٣)] . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : بايعناه على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت [(٤)] . وأخرج أحمد وأبو داود

(١) الطبرانى (٤٩٢٦) .
(٢) ابن جرير ٢٦/ ٥٤ .
(٣) البخارى فى المغازى (٤١٦٩) .
(٤) مسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٦٧، ٦٨) والنسائى فى الكبرى فى البيعة (٢٧٧٩) والدارمى فى السير ٢/ ٢٢٠ .

والترمذى عن جابر عن النبى ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » (١) وأخرج مسلم من حديثه مثله (٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه : ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى : الفتح . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى : خيبر ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ يعنى : أهل مكة أن يستحلوا حرم الله ويستحل بكم وأنتم حرم ﴿**ولتكون آية للمؤمنين**﴾ قال : سنة لمن بعدكم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ قال : هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها** ﴾ قال : هى خيبر . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرة رسول الله ، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿**وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم**﴾(٣) . وفى صحيح مسلم وغيره : أنها نزلت فى نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية (٤) . وأخرج أحمد والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل فى سبب نزول الآية : أن ثلاثين شابا من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين فى السلاح فثاروا فى وجوههم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم ـ ولفظ الحاكم : بأبصارهم ـ فقام إليهم المسلمون فأخذوهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «هل جئتم فى عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم ، فنزلت هذه الآية(٥) .

﴿ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ**

(١) أحمد ٣/ ٣٥ وأبو داود فى السنة (٤٦٥٣) والترمذى فى المناقب (٣٨٦٠) وقال : « حسن صحيح » .
(٢) مسلم فى الإمارة (١٨٥٦/ ٧١) .
(٣) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٧٦٢) وأحمد ٣/ ١٢٢ ومسلم فى الجهاد والسير (١٨٠٨/ ١٣٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٨٨) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٤) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٣٠) وابن جرير ٢٦/ ٥٩ والبيهقى فى الدلائل ٤/ ١٤١ .
(٤) مسلم فى الجهاد والسير (١٨٠٧/ ١٣٢) ، وهو جزء من حديث طويل .
(٥) أحمد ٤/ ٨٦ ، ٨٧ والنسائى فى التفسير (٥٣١) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، كلهم عن عبد الله بن مغفل .

كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾

قوله : ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ يعنى : كفار مكة ، ومعنى صدهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم ﴿ والهدى معكوفا ﴾ قرأ الجمهور بنصب :﴿ الهدى ﴾ عطفا على الضمير المنصوب فى ﴿ صدُّوكم ﴾ . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على المسجد ، ولابدّ من تقدير مضاف ، أى عن نحر الهدى ، وقرئ بالرفع على تقدير : وصدّ الهدى . وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى وسكون الدال ، وروى عن أبى عمرو وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء ، وانتصاب ﴿ معكوفاً ﴾ على الحال من الهدى ، أى محبوساً . قال الجوهرى: عكفه، أى حبسه ووقفه ، ومنه : ﴿ والهدى معكوفا ﴾ ومنه : الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . وقال أبو عمرو بن العلاء : معكوفاً : مجموعا ، وقوله : ﴿ أن يبلغ محله﴾ أى عن أن يبلغ محله ، أو هو مفعول لأجله ، والمعنى : صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله ، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال ، ومحله:منحره ، وهو حيث يحل نحره من الحرم، وكان الهدى سبعين بدنة ، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذى وصلوا إليه وهو الحديبية محلا للنحر . وللعلماء فى هذا كلام معروف فى كتب الفروع ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ﴾ يعنى : المستضعفين من المؤمنين بمكة ، ومعنى ﴿ لم تعلموهم ﴾ : لم تعرفوهم . وقيل : لم تعلموا أنهم مؤمنون ﴿ أن تطؤوهم ﴾ يجوز أن يكون بدلا من رجال ونساء ولكنه غلب الذكور ، وأن يكون بدلا من مفعول ﴿تعلموهم﴾ ، والمعنى : أن تطؤوهم بالقتل والإيقاع بهم ، يقال : وطئت القوم ، أى أوقعت بهم ، وذلك أنهم لو كسبوا مكة وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم

فيها من الكفار ، وعند ذلك لا يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة وتلحقهم سبة ، وهو معنى قوله : ﴿ **فتصيبكم منهم** ﴾ أى من جهتهم ، و ﴿ **معرّة** ﴾ أى مشقة بما يلزمهم فى قتلهم من كفارة وعيب . وأصل المعرّة : العيب ، مأخوذة من العرّ ، وهو الجرب ، وذلك أن المشركين سيقولون : إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم . قال الزجاج : لولا أن تقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فتصيبكم منهم معرّة ، أى إثم ، وكذا قال الجوهرى وبه قال ابن زيد. وقال الكلبى ومقاتل وغيرهما : المعرّة :كفارة قتل الخطأ ، كما فى قوله : ﴿ فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : ٩٢] . وقال ابن إسحاق : المعرّة : غرم الدية . وقال قطرب : المعرّة: الشدة . وقيل : الغمّ ، و ﴿ **بغير علم** ﴾ متعلق بأن تطؤوهم ، أى غير عالمين ، وجواب «لولا» محذوف ، والتقدير: لأذن الله لكم أو لما كفّ أيديكم عنهم . واللام فى : ﴿ **ليدخل الله فى رحمته من يشاء** ﴾ متعلقة بما يدّل عليه الجواب المقدّر ، أى ولكن لم يأذن لكم ، أو كف أيديكم ليدخل الله فى رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا فى فتح مكة ، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار ويفكّ أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب . وقيل : اللام متعلقة بمحذوف غير ما ذكر، وتقديره: لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ، والأوّل أولى . وقيل: إن ﴿ **من يشاء** ﴾: عباده ممن رغب فى الإسلام من المشركين ﴿ **لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما** ﴾ التزيل: التميز ، أى لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا . وقيل : التزيل: التفرق ، أى لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهرهم ، والمعانى متقاربة ، والعذاب الأليم : هو القتل والأسر والقهر ، والظرف فى قوله :﴿ **إذ جعل الذين كفروا** ﴾ منصوب بفعل مقدّر ، أى اذكر وقت جعل الذين كفروا ﴿ **فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** ﴾ . وقيل : متعلق بعذبنا . والحمية : الأنفة ، يقال : فلان ذو حمية ، أى ذو أنفة وغضب ، أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم ، والجعل بمعنى الإلقاء ، وحمية الجاهلية بدل من الحمية . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا فى منازلنا ، فتتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا ، واللات والعزّى لا يدخلونها علينا ، فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم ، وقال الزهرى : حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة . قرأ الجمهور : ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ ، وقرأ ابن أبى عبلة وأبو حيوة وابن عون : « لو تزايلوا » . والتزايل : التباين ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ أى أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية . وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ وهى : « لا إله إلا الله » كذا قال الجمهور ، وزاد بعضهم : « محمد رسول الله » وزاد بعضهم : « وحده لا شريك له » . وقال الزهرى هى : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذلك أن الكفار لم يقرّوا بها ، وامتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الذى كان بينهم وبين

رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك فى كتب الحديث والسير (١) ، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين وألزمهم بها ، والأول أولى ؛ لأن كلمة التوحيد هى التى تبقى بها الشرك بالله . وقيل : كلمة التقوى : هى الوفاء بالعهد والثبات عليه ﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ أى وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم ؛ لأن الله سبحانه أهلهم لدينه ، وصحبة رسوله ﷺ .

﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ فى المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن الرؤيا كانت بالحديبية ، وقوله : ﴿ **بالحق** ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى صدقا متلبسا بالحقّ ، وجواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله : ﴿**لتدخلنّ المسجد الحرام** ﴾ أى فى العام القابل ، وقوله : ﴿ **إن شاء الله** ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله : ﴿ ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غداً . إلا أن يشاء الله ﴾ [الكهف : ٢٣ ، ٢٤] قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، وقيل : كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه فى الحديبية ، فوقع الاستثناء لهذا المعنى . قاله الحسن بن الفضل . وقيل : معنى ﴿ **إن شاء الله** ﴾ :كما شاء الله ، وقال أبو عبيدة : إن بمعنى إذ ، يعنى : إذ شاء الله حتى أرى رسوله ذلك ، وانتصاب ﴿**آمنين** ﴾ على الحال من فاعل لتدخلن . وكذا ﴿ **محلقين رؤوسكم ومقصرين** ﴾ أى آمنين من العدوّ ، ومحلقا بعضكم ومقصرا بعضكم ، والحلق والتقصير خاصّ بالرجال ، والحلق أفضل من التقصير كما يدل على ذلك الحديث الصحيح فى استغفاره ﷺ للمحلقين فى المرة الأولى والثانية ، والقائل يقول له: وللمقصرين . فقال فى الثالثة وللمقصرين ، وقوله : ﴿ **لا تخافون** ﴾ فى محل نصب على الحال أو مستأنف ، وفيه زيادة تأكيد لما قد فُهم من قوله : ﴿**آمنين** ﴾ ، ﴿**فعلم ما لم تعلموا**﴾ أى ما لم تعلموا من المصلحة فى الصلح لما فى دخولكم فى عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين ، وهو معطوف على صدق ، أى صدق رسوله الرؤيا ، فعلم ما لم تعلموا به ﴿ **فجعل من دون ذلك فتحا قريبا** ﴾ أى فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله فتحا قريبا، قال أكثر المفسرين : هو صلح الحديبية ، وقال ابن زيد والضحاك : فتح خيبر ، وقال الزهرى : لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ، ولقد دخل فى تلك السنتين فى الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر ، فإن المسلمين كانوا فى سنة ستّ ، وهى سنة الحديبية ألفا وأربعمائة وكانوا فى سنة ثمان عشرة آلاف.

(١) من ذلك ما رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى** ﴾ أى إرسالا متلبسا بالهدى ﴿ **ودين الحق** ﴾ وهو الإسلام ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ أى يعليه على كل الأديان كما يفيده تأكيد الجنس . وقيل : ليظهر رسوله ، والأوّل أولى . وقد كان ذلك بحمد الله . فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان ، وانقهر له كل أهل الملل ﴿ **وكفى بالله شهيدا** ﴾ الباء زائدة كما تقدّم فى غير موضع ، أى كفى الله شهيداً على هذا الإظهار الذى وعد المسلمين به وعلى صحة نبوّة نبيه ﷺ . ﴿**محمد رسول الله** ﴾ محمد مبتدأ ورسول الله خبره ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ورسول الله بدل منه . وقيل : محمد مبتدأ ورسول الله نعت له ﴿ **والذين معه** ﴾ معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر ، والأول أولى . والجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به ﴿ **والذين معه** ﴾ قيل : هم أصحاب الحديبية ، والأولى الحمل على العموم ﴿ **أشداء على الكفار** ﴾ أى غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته ، وهو جمع شديد ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ أى متوادّون متعاطفون ، وهو جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ، ولمن وافقه الرحمة والرأفة . قرأ الجمهور برفع : ﴿ **أشداء** ﴾ و﴿ **رحماء** ﴾ على أنه خبر للموصول ، أو خبر لمحمد وما عطف عليه كما تقدم ، وقرأ الحسن بنصبهما على الحال أو المدح، ويكون الخبر على هذه القراءة ﴿**تراهم ركعا سجداً** ﴾ أى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين ، وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر أو استئناف : أعنى قوله : ﴿ **تراهم** ﴾ .

﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ أى يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور أو فى محل نصب على الحال من ضمير تراهم ، وهكذا ﴿**سيماهم فى وجوههم من أثر السجود**﴾ السيما : العلامة ، وفيها لغتان المدّ والقصر ، أى تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة وكثرة التعبد بالليل والنهار ، وقال الضحاك : إذا سهر الرجل أصبح مصفرا ، فجعل هذا هو السيما ، وقال الزهرى: مواضع السجود أشد وجوههم بياضا يوم القيامة ، وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع ، وبالأوّل ــ أعنى : كونه ما يظهر فى الجباه من كثرة السجود ــ قاله سعيد بن جبير ومالك ، وقال ابن جريج[1]: هو الوقار، وقال الحسن : إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل: هو البهاء فى الوجه وظهور الأنوار عليه ، وبه قال سفيان الثورى : والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من هذه الصفات الجليلة، وهو مبتدأ وخبره قوله : ﴿ **مثلهم فى التوراة** ﴾ أى وصفهم الذى وصفوا به فى التوراة، ووصفهم الذى وصفوا به ﴿ **فى الإنجيل** ﴾ وتكرير ذكر المثل ؛ لزيادة تقديره وللتنبيه على غرابته، وأنه جار مجرى الأمثال فى الغرابة ﴿ **كزرع أخرج شطأه**﴾ إلخ ،كلام مستأنف ، أى هم كزرع إلخ . وقيل : هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدم من الأوصاف .

---

(١) فى المطبوعة : « ابن جرير » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وقيل : هو خبر لقوله : ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ أى ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قال الفراء: فيه وجهان : إن شئت قلت : ذلك مثلهم فى التوارة ومثلهم فى الإنجيل ، يعنى : كمثلهم فى القرآن ، فيكون الوقف على الإنجيل ، وإن شئت قلت : ذلك مثلهم فى التوراة ، ثم تبتدأ : ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قرأ الجمهور : ﴿**شطأه** ﴾ بسكون الطاء ، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتحها ، وقرأ أنس ونصر بن عاصم ويحيى بن وثاب : «شطاه » كعصاه . وقرأه الجحدرى وابن أبى إسحاق : « شطه » بغير همزة ، وكلها لغات ، قال الأخفش والكسائى : ﴿ **شطأه** ﴾ أى طرفه. قال الفراء: شطأ الزرع فهو مشطئ : إذا خرج . قال الزجاج :﴿**أخرج شطأه**﴾ أى نباته، وقال قطرب : الشطأ : سوى السنبل ، وروى عن الفراء أيضا أنه قال : هو السنبل ، وقال الجوهرى : شطأ الزرع والنبات والجمع أشطاء. وقد أشطأ الزرع : خرج شطؤه ﴿ **فآزره** ﴾ أى قواه وأعانه وشده . قيل : المعنى : إن الشطأ قوى الزرع . وقيل : إن الزرع قوّى الشطأ ، ومما يدلّ على أن الشطأ خروج النبات . قول الشاعر :

أخرج الشطأ على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

قرأ الجمهور: ﴿ **فآزره** ﴾ بالمد ، وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس بالقصر ، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

بمحنية قد آزر الضالّ نبتها مجرّ جيوش غانمين وخيب

قال الفراء : آزرت فلانا آزره أزرًا : إذا قوّيته ﴿ **فاستغلظ** ﴾ أى صار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا ﴿**فاستوى على سوقه** ﴾ أى فاستقام على أعواده ، والسوق جمع ساق ، وقرأ قنبل: « سؤقه » بالهمزة الساكنة ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ أى يعجب هذا الزرع زارعه لقوّته وحسن منظره ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبى ﷺ وأنهم يكونون فى الابتداء قليلا ، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع ، فإنه يكون فى الابتداء ضعيفا ، ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه ، قال قتادة : مثل أصحاب محمد ﷺ فى الإنجيل ، أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه ﷺ وتقويته لهم فقال : ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ أى كثرهم وقواهم ليكونوا غيظا للكافرين ، واللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليغيظ ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ أى وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد ﷺ أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة التى هى أكبر نعمة ، وأعظم منة .

وقد أخرج أحمد ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة، فلما صدّت عن البيت؛ حنت كما تحنّ إلى أولادها . وأخرج الحسن بن سفيان وأبو

يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن قانع والبارودى والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند جيد، عن أبى جمعة حنيذ بن سبع [١] قال : قاتلت[٢] رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ ، وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان ، وفى رواية عند ابن أبى حاتم : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة[٣].

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم** ﴾ قال : حين ردّوا النبى ﷺ ﴿ **أن تطؤوهم** ﴾ بقتلكم إياهم ﴿ **لو تزيلوا** ﴾ يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلكم إياهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال : يوم صفين اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية : يعنى الصلح الذى كان بين النبى ﷺ وبين المشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا . فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : « بلى » . قال : ففيم نعطى الدنية [٤] فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : « يا بن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً » ، فرجع متغيظا ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا ، فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها ، قال : يا رسول الله أفتح هو ؟ قال : « نعم »[٥].

وأخرج الترمذى وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن جرير ، والدارقطنى فى الإفراد، وابن مردويه، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ : ﴿**وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ قال : « لا إله إلا الله » وفى إسناده الحسن بن قزعة ، قال الترمذى بعد إخراجه : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وكذا قال أبو زرعة [٦] . وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعا مثله . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن

---

(١) اختلف فى اسمه، فقيل: حبيب بن سباع، وقيل: جنيد، وقيل: حبيب بن وهب ، يعد فى الشاميين ، أدرك النبى ﷺ عام الأحزاب ، وذكر ابن الأثير أن الأول أصح ، وأورد حديثه . أسد الغابة ١/ ٣٧٠ ، ٣٧١، ٥/ ١٥٩ ، ١٦٠ ، وقال ابن كثير ٦/ ٣٤٦ : « والصواب أبو جعفر حبيب ابن سباع » .

(٢) فى المطبوعة : « قابلت » ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج وابن كثير .

(٣) أبو يعلى (١٥٦٠) والطبرانى (٢٢٠٤ ، ٣٥٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « رواه الطبرانى بإسنادين ، رجال أحدهما ثقات » .

(٤) الدنية : النقيصة والحالة الناقصة .

(٥) أحمد ٤/ ٣٣٠ والبخارى فى الجزية والموادعة (٣١٨٢) والتفسير (٤٨٤٤) والاعتصام (٧٣٠٨) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٥/ ٩٤ ــ ٩٦) والنسائى فى التفسير (٥٢٤) .

(٦) الترمذى فى التفسير (٣٢٦٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ١٨١ .

علىّ بن أبى طالب مثله من قوله . وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الإفراد عن المسور بن مخرمة ومروان نحوه، وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ قال : هو دخول محمد البيت والمؤمنين محلقين ومقصرين . وقد ورد فى الدعاء للمحلقين والمقصرين فى الصحيحين وغيرهما أحاديث منها ما قدمنا الإشارة إليه ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عمر [١] وفيهما من حديث أبى هريرة أيضا [٢] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿**سيماهم فى وجوههم** ﴾ قال : أما إنه ليس الذى يرونه ، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه. وأخرج محمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : هو السمت الحسن . وأخرج الطبرانى فى الأوسط [٣] ، والصغير[٤] وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾ قال : «النور يوم القيامة » . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن نصر عن ابن عباس فى الآية قال : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ يعنى : نعتهم مكتوب فى التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض[٥]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أنس : ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ قال : نباته: فروخه .

---

(١) البخارى فى الحج (١٧٢٧) ومسلم فى الحج (١٣٠١/ ٣١٦ ــ ٣١٩) .

(٢) البخارى فى الحج (١٧٢٨) ومسلم فى الحج (١٣٠٢/ ٣٢٠) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٠ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه راود بن الجراح ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه الدارقطنى وغيره» .

(٤) الطبرانى فى الصغير ١/ ٢٢٢ ، وقال : « لا يروى عن أبى إلا بهذا الإسناد تفرد به أبو جعفر الرازى » .

(٥) ابن جرير ٢٦/ ٧١ .